بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد . .

فى صيف سنة ١٩٨٥ م ، كنت فى مدينة « بون » فى ألمانيا الغربية للعلاج من ألم أصاب العمود الفقرى ، وكانت تأتينى ما بين حين وآخر ، بعض الصحف العربية ، ومنها صحيفة الأهرام القاهرية ، وفى أحد الأيام ، قرأت فيها مقالاً للدكتور فؤاد زكريا ، يذكر فيه ضرورة الحوار مع الدعاة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية ، نظرًا لخطورة الموضوع ، واتساع القاعدة ، التى تنادى به ، وعدم قيام حوار من هذا النوع ، رغم أهميته لحاضر الأمة ومستقبلها .

وكان أول ما لفت نظرى ، أنه جعل عنوان هذا الموضوع الكبير العميق « المسألة الدينية فى مصر المعاصرة » ! والكتاب - كما يقولون - يُقرأ من عنوانه ، ففهمت أن هذه هى مكانة الدين فى نفس الكاتب . الدين الذى هو روح الحياة ، وحياة الروح، وجوهر الوجود الإنسانى كله ، لا يعدو أن يكون فى تفكير كاتبنا غير مسألة من مسائل الحياة ، التى تشغل الناس فترة من الزمن ؛ مثل : تداخل خطوط التليفونات ، أو انقطاع المياه عن الأدوار العليا فى النهار ، أو ارتفاع سعر الدولار فى السوق ، ونحو ذلك . . .

ثم لاحظت أنه يسميها المسألة « الدينية » ، وليست « الإسلامية » . فالكُتّاب العلمانيون حريصون ، كل الحرص ، على إبعاد كلمة « الإسلام » من قاموسهم ، ما استطاعوا ، واستخدام كلمة « الدين » ؛ وذلك لتثبيت المعنى الدخيل المستورد ، وهو التفريق الجازم بين ما هو دين ، وما ليس بدين ، من شئون الحياة المختلفة . وهو معنى غريب على الفكر الإسلامى ، والحياة الإسلامية .

ومع هذا ، غضضت الطرف عن العنوان ، وبدأت أقرأ المقال الأول ، وأنا أقول

فى نفسى : هذه بداية طيبة ، فما أحوج أبناء مصر ، وأبناء العروبة ، وأبناء الإسلام، إلى أن يتحاوروا بالفكر ، بدل أن يتقاذفوا بالتهم ، أو يتقاتلوا بالسلاح .

ولكن ، ما أن انتهى د . فؤاد زكريا من مقالاته ، ومن التعقيب - بعد ذلك - على منتقديه ، حتى شعرت بأن ظنى قد خاب فى جدية دعوة الدكتور للحوار ، مع التيار الإسلامى ؛ وذلك لجملة أسباب :

١ - أن الكاتب لم يكن يحمل قلمًا للحوار ، بل سيفًا للهجوم ، واستغل المساحة الكبيرة ، المعطاة له فى الصحيفة ، للتشكيك فى المسلَّمات الأولية عند الأمة الإسلامية ، طوال أربعة عشر قرنًا من الزمان ، حتى اجترأ على التشكيك فى أن الشريعة من عند الله ! وزعم أن كل ما هو إلهى ، ينقلب بشريًا صرفًا ، بمجرد تفسيره وتطبيقه . ومعنى هذا أنه لا فائدة ، ولا مبرر أن ينزل الله للناس كتابًا ، أو يلزمهم بشريعة ، يبعث بها رسولاً .

٢ - أنه لم يحاول أن يتنازل عن شىء من أفكاره ، ليقترب من دعاة الإسلام ، بل كان أكبر همه أن يتنازلوا هم عن أفكارهم ، بل عن عقيدتهم وشريعتهم ومنطلقاتهم الأساسية ليقتربوا منه ، وليت شعرى ، كيف يتم حوار على هذه الصورة ؟!

إن القرآن ذكر فى جدال أهل الكتاب أدبين رئيسيين :

الأول : أن يكون بالتى هى أحسن ، فلو كان هناك أسلوبان ؛ **أحدهما** : حسن ، **والأخر** : أحسن منه ، لوجب أن نستعمل الذى هو أحسن .

الثانى : التذكير بنقاط الاتفاق ، التى من شأنها أن تجمع ، ولا تفرق .

وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . . ﴾ ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .

هذا هى طريقة القرآن فى الحوار ، أما طريقة د . زكريا ، فإنها تهدم ولا تبنى ، وتفرق ولا تجمع ، وتباعد ولا تقرب .

٣ - أن الكاتب كان يلوى أعناق الحقائق ليًا ، ويتعسف فى التفسير والتعليل ، ولو كانت الحقائق - أمامه - فى وضوح الشمس فى ضحى صيف القاهرة ، وكلامه عن الشريعة الإسلامية ، وعن الصحوة الإسلامية ينطق بذلك بجلاء .

٤ - أنه حين رد عليه بعض المعلقين ، قطع أوصال تعليقاتهم ، وانتقى منها ما حلا له ، فأبقاه ، وحذف ما شاء ، وقطع كلمات ناقديه عن سباقها وسياقها ، ومنهم علماء ومستشارون وأساتذة جامعات .

كما أن صحيفة الأهرام ، لم تكن منصفة فى الحكم بين طرفى الحوار ، فأعطت كل الحرية للدكتور فؤاد زكريا ، ولم تعط لناقديه مثل ما أعطت ، بل حولت دورهم وانتقاداتهم إلى الكاتب نفسه ، يأخذ منها ويدع ، على طريقة ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ ﴾ (١) . حتى أن الداعية الإسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالى بعث بمقالتين إلى « الأهرام » حول الموضوع ، فلم تنشر أيا منهما ، ولم تشر إليه ، وغطت ذلك بأن دعته إلى المشاركة فى ندوة أدارتها الأهرام داخلها ، يتكلم فيها الشيخ نصف ساعة ، ثم يلخص ما قاله فى سطرين أو ثلاثة !

وهذا ما جعلنى أعلق على دعوة الحوار ، التى أعلنها د . زكريا ، أنها أشبه بسباق ، يعدو فيه حصان واحد !

وقد تبين لى - فيما بعد - أن هذه المقالات ، التى جمعها صاحبها وأودعها ضمن كتاب له ، خطط لها العلمانيون ضد الشريعة الإسلامية ودعاتها ، فقد صدرت لهم عدة كتب ، تهاجم الشريعة وفقهاءها قديمًا ، والداعين إليها حديثًا .

كما فسحت لهم صحف ، معروفة ، صدورها ، ليكتبوا فى هذا الاتجاه ما شاءت لهم أهواءهم ، فضلاً عن مجلاتهم الخاصة ، التى تعبر عن اتجاههم بصراحة ، حيث لم يسمح للتيار الإسلامى ، الذى يعبر عن القاعدة العريضة للأمة ، أن تكون له مجلة تتحدث باسمه .

---

(١) النساء : ٤٣ .

وقد أشار إلى هذه المؤامرة المدبّرة الكاتب المسلم اليقظ الأستاذ فهمى هويدى فى مقالاته ، التى تنشر فى « الأهرام » ، وفى عدد من الصحف العربية فى الأردن والخليج . . ونبه أن هناك « تنظيمات متطرفة » للعلمانيين ، ينبغى أن تُدان ، كما دينت تنظيمات دينية متطرفة ؛ مثل التكفير والهجرة . وقال : إن الفرق بين الاثنين هو : أن **الأولين** « الدينيين » شباب مندفع ، سلك طريقه على سبيل الخطأ ، وأن **الآخرين** شيوخ مجربون - بعضهم محترفون - اتخذوا مواقعهم عمدًا ، ومع سبق الإصرار والترصد .

قال : وليس فى الأمر مبالغة ، فنحن نستطيع أن نرصد - خلال العامين الأخيرين ، على سبيل المثال - فريقًا من هؤلاء ، فرغ جهده ، ونذر نفسه ، للنيل من الشريعة ، وتسفيه التجربة الإسلامية ، وتحقير التاريخ الإسلامى ورموزه «أهرام ٢/٩/١٩٨٦ م » .

ولما دعت اللجنة الثقافية فى نقابة الأطباء بالقاهرة إلى عقد ندوة ، يتحاور فيها الإسلاميون والعلمانيون ، دعتنى مع فضيلة أستاذنا الشيخ الغزالى لتمثيل الجانب الإسلامى ، كما دعت عددًا من دعاة العلمانية منهم : د . فرج فودة ، ود . وحيد رأفت ، ود . فؤاد زكريا ، واعتذر أكثرهم ، ولم يحضر منهم إلا الأخير . وقد رحبتُ بهذا الحوار ، وهذه الندوة ، حيث يلتقى الطرفان وجهًا لوجه ، لمناقشة قضية ، هى أخطر قضايا الساعة .

وفى اليوم المحدد للندوة ، شهدت قاعة « دار الحكمة » جمهورًا ، قل أن يتوافر لمحاضرة أو ندوة ، ضاقت به الدار وما حولها ، وجلس الناس على الأرض ، وصعدوا إلى السطوح ، ووقفوا فى الشارع ، وانصرف الكثيرون ،حيث لم يجدوا لهم شبرًا من الأرض .

كانت الندوة أشبه باستفتاء شعبى على « الإسلام والعلمانية » ، أيهما يختاره الشعب ، وقال د . فؤاد زكريا ، فى بداية حديثه : إن العنوان يوحى بأن الإسلام فى مواجهة العلمانية ، وهذا يعنى أن المعركة محسومة من أول الأمر لصالح الإسلام . وهو اعتراف صريح منه ، بأنه عند المفاضلة بين الإسلام وغيره ، فإن الكفة الراجحة - دائمًا - تكون هى كفة الإسلام .

تكلم شيخنا الغزالى ، ثم تكلم د . فؤاد زكريا ، ثم تكلمت ، ثم طلب الدكتور أن يعقب على كلامى ، فأعطيت له الفرصة كاملة ، فتكلم وأطال ، وهو الوحيد الذى تكلم مرتين ، برغم أن أكثر من فى القاعة متضجرين من كلامه . وكان المفترض أن أرد على تعقيبه ؛ لأنه يتعلق بكلامى ، ولكن الوقت كان قد طال ، فتركنا الحكم للجمهور ، وهو قد حكم - فعلاً - بما لم يرض د . فؤاد ، وجماعته .

ثم تكلم الكاتب المسلم الغيور ، الأستاذ عادل حسين ، رئيس تحرير جريدة الشعب ، حيث صحح بعض ما ذكره عنه د . زكريا ، وألقى الضوء على بعض النقاط المهمة . وتكلمت إحدى الحاضرات من مؤيدات العلمانية ، كلامًا ، فيه كثير من التجنى والإسفاف والخروج عن أدب الحوار ، وثار عليها الجمهور ، ولكن المشرفين على الندوة : د . عصام العريان ، ومن معه ، كانوا غاية الحزم والحكمة ، وحسن التنظيم ، فاستطاعوا أن يلزموا الجمهور باحترام النظام .

وفى الختام عقب على الندوة ، بكلمة معبرة جامعة ، المستشار الجليل الأستاذ طارق البشرى . وعقبها انصرف الحضور ، بسلام .

كانت هذه الندوة ندوة تاريخية مشهودة ، تحدثت عنها جميع الصحف : القومية ، والحزبية ، والإسلامية . . اليومية ، والأسبوعية ، والشهرية ، كل من وجهة نظره ، ولخصها البعض تلخيصًا حسنًا ، وتعمد بعضها أن يشوهها تشويهًا ؛ مثل صحيفة « الأهالى » ، و« الوفد » ، مما اضطر جريدة « الشعب » أن ترد عليهما ، واضعة للأمور فى نصابها .

ولكن أعجب تعقيب على الندوة ، كان هو الذى صدر عن أحد أطرافها ، وهو د . فؤاد زكريا ، الذى كتب فى مجلة « المصور » عن الندوة ، كلامًا خلا من العلمية والإنصاف . اتهم فيه الجمهور ، الذى شهد الندوة ، وجلهم - إن لم يكن كلهم - من الشباب الجامعى المستنير ، وفيهم كثير من صفوة المثقفين . بل اتهم شيخنا الغزالى ، واتهمنى ، بأننا كنا نخاطب العواطف ، أكثر مما نخاطب العقول ، وهو كلام باطل مخالف لواقع الندوة تمامًا ، كما يشهد بذلك كل من

حضرها ، وفيهم كثير من رجال العلم والتربية وأساتذة الجامعات والقانون والقضاء .

وقد لاحظ الكثيرون ، ممن قرأ كلام الدكتور زكريا ، أنه صب جام سخطه وغيظه علىَّ أنا خاصة .

وما كان لى من ذنب لدى د . فؤاد زكريا ، إلا أنى تكلمت بعده ، فأتيت على شبهاته من القواعد ، وأن الجماهير قابلت كلامه بالامتعاض والاستهجان ، وقابلت كلامى بالتجاوب والاستحسان .

والحق أن هذا لم يكن لضعفه ولا لقوتى ، بل لضعف الباطل الذى نصب نفسه للمحاماة عنه ، ولقوة الحق الذى كرمنى الله بالدفاع عنه .

إن من سوء حظه أنه يدافع عن قضية خاسرة ، يدافع عن « العِلمانية » فى مجتمع يؤمن بالإِسلام .

وقد اتهم الدكتور الإسلاميين بأنهم بكروا وملئوا مقاعد قاعة دار الحكمة . وهو يتوهم - أو يوهم - أن هذا كان بتخطيط وترتيب واتفاق ! ويعلم الله أن شيئًا من هذا لم يحدث . كل ما فى الأمر أن الناس دُعوا إلى ندوة فى قضية تشغلهم فأجابوا .

وهب أن الندوة كانت فى قاعة المحاضرات الكبرى بجامعة القاهرة ، بل هبها كانت فى « استاد » القاهرة الدولى ، وفتح الباب على مصراعيه للحضور ، فأى الفريقين سيكون أكثر عددًا ، وأعز نفرًا ؟!

إن أنصار الإِسلام - ولا ريب - سيكونون هم الأكثرية العظمى . وستكون قلوب الجماهير الحاضرة وعقولها وآذانها مع التيار الإِسلامى ودعاته . وهذا ما لا يجهله د . فؤاد زكريا ، بل هو ما اعترف به بصريح العبارة ، وتمحل أن يجد له تبريرًا ، فلم يوفق . أما ما قاله عنى : أنى استطعت أن أستحوذ على الجماهير بالتأثير العاطفى ، فإن الذين شهدوا الندوة يعلمون علم اليقين أنى كنت فى المقام الأول عقلانيًا وموضوعيًا ومنطقيًا إلى أبعد حد . ومن شاء فليحتكم إلى شريط الندوة المسجل بالصوت والصورة .

كما زعم أنى كنت أرفع صوتى وأخفضه ، للتأثير على عواطف الجمهور .

وأنا - بحمد الله - أرفع صوتى دائمًا ولا أخفضه . وأسأله تعالى أن يجعل صوتى دائمًا عاليًا ، وأن يجعل علوه بالحق وللحق .

إن الدكتور الفيلسوف مغيظ ومحنق ، لعدم تجاوب الجماهير معه ؛ لأنه يؤذن فى « مالطة » - كما يقولون .

وأؤكد للدكتور أنه سيظل يؤذن فى مالطة ، إن جاز لنا أن نعبر عما يقوله بالأذان ؛ لأنه ضد الأذان على خط مستقيم ، ولكنهم يقولون : « الأمثال لا تُغير ».

أجل ، سيظل الدكتور بعيدًا عن عقول الجماهير ، وقلوبهم معًا ؛ لأنه يحدثهم بمفاهيم مستجلبة من ديار أخرى ، ومن قوم آخرين ، فهم لها رافضون وعنها معرضون ؛ لأنها مناقضة لدينهم وشريعتهم ، وقيمهم وتاريخهم ، وواقعهم .

من هنا اتجه تفكيرى إلى أن أرد على دعاوى د . فؤاد زكريا خاصة ، وعلى العلمانيين عامة ، فى كتاب يُقرأ ، لا فى محاضرة تُسمع ، بعيدًا عن تأثيره قوة الصوت ، وتشجيع الجمهور ، وسيعلم الدكتور أننا - دائمًا - أصحاب الحجة الأقوى ، والمنطق الأسدّ ، سواء حاضرنا أم كتبنا ؛ لأننا نعبر عن الحق ، الذى قامت به السموات والأرض ، والحق أحق أن يُتبع ، وأولى أن يُستمع ، والباطل مهما انتفش واستطال ، فهو لا بد زائل ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ، إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (١) .

وإنما اخترت د . فؤاد زكريا ، للرد عليه من بين دعاة العلمانية فى مصر ؛ لأنه نشر مقالاته ، فى أوسع الصحف انتشارًا ؛ ولأنه الوحيدَ ، الذى اشترك ممثلاً للجانب العلمانى فى الندوة التاريخية بدار الحكمة ؛ ولأنه أكثر العلمانيين إبانة عن فكرته ، وأقدرهم على إيراد الشبهات ، وسوقها فى صورة البراهين ، وأجرؤهم على مناقشة القضايا من جذورها ، وإن كانت مجافية لأوضح المسلمات الدينية . فإذا هدمنا كل ما استند إليه ، وما نمقه وزوقه من مقولات ، فقد سقط كل العلمانيين ، وسقطت مقولاتهم ، وذهب زبدهم جفاء ، وبقى ما ينفع الناس .

---

(١) الإسراء : ٨١ .

وقد أدرت الحوار فى هذا الكتاب ، حول جملة أمور أساسية :

١ - تحديد المواقع أو الهويات لكل من الطرفين المتحاورين ، من أول الأمر ، وأين يقف كل منهما ؟

٢ - تحديد المفاهيم الرئيسية فى الحوار ، وخصوصًا المفهومين الكبيرين : «الإسلام والعِلمانية » .

٣ - تحديد المعايير ،التى يجب أن يُرجع إليها عند الخلاف ، ويرتضيها الطرفان حكمًا بينهما .

٤ - تحرير موضع النزاع بين الفريقين ، بحيث يُعرف المتفق عليه ، والمختلف فيه.

٥ - تتبع الشبهات المهمة ، التى أثارها د . فؤاد زكريا خاصة ، والعِلمانيون عامة ، لتفنيدها ، والرد عليها ، وخصوصًا فيما يتعلق بمعركة التحرر الحقيقى للعالم الإِسلامى اليوم ، وهو التحرر من كل ألوان الاستعمار ، وفى مقدمته الاستعمار الثقافى والتشريعى ، لهذا خصصنا معركة تطبيق الشريعة بمزيد من الحديث .

كذلك أفردنا حديثًا عن « الصحوة الإسلامية » ، وموقف الاستعمار والصهيونية منها ، ورد مزاعم الدكتور حولها . وتركت أشياء أخرى مهمة فى الرد على العلمانيين ، سيتضمنها - إن شاء الله - الجزء الثالث من سلسلة « حتمية الحل الإِسلامى » ، وهو قريب الصدور ، بتوفيق الله .

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب ، مؤلفه ، وقارئه ، وناشره ، وموزعه ، وطابعه ، وكل من أسهم فيه ، وأن يكون شعاعًا على الطريق ، يهدى ويضيىء . . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . . .

الدوحة .. غرة رجب ١٤٠٧ هـ **يوسف القرضاوى**

لكى يثمر الحوار

هناك أشياء أساسية ، نحتاج - لكى يثمر الحوار - إلى تحديدها ، بدقة ووضوح ، حتى لا تلتبس الأمور ، ولا تختلط الأوراق ، ولا يكون الحوار جدلاً بيزنطيًا ،لا يكشف عن غاية ، ولا يهدى إلى طريق .

من هذه الأمور :

١ - تحديد المواقع ، أو الهويات .

٢ - تحديد المفاهيم .

٣ - تحديد المعايير .

٤ - تحرير موضع النزاع .

وسنفرد لكل منها حديثًا خاصًا به ، ثم نرد على الشبهات الأساسية التى تعلق بها دعاة العِلمانية .

تحديد المواقع أو الهويات

أعنى بتحديد المواقع ، وبعبارة أخرى تحديد الهويات : أن يحدد كل من الطرفين المتحاورين أين هو ، وما هو ؟ فلا يسوغ فى منطق ، أن تجادل فى الفروع ، من لا يؤمن بالأصول ، أو تقنع بالشريعة ، من ينكر العقيدة .

فالمادى الملحد ، الذى ينكر « الغيبيات » كلها ، ولا يؤمن بشىء وراء المادة ، التى يدركها الحس ، ويعتقد أن « الله » خرافة ، وأن الأديان - كل الأديان - أفيون الشعوب ، ولا يؤمن بأن هناك رسلاً ، أوحى الله إليهم ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، ولا أن وراء هذه الحياة الفانية ، القصيرة ، حياة أخرى خالدة باقية ، يجزى فيها الناس بأعمالهم ، خيرًا ، أو شرًا ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (١) .

أقول : من لم يؤمن بهذا كله ، كيف تجادله فى فرض الزكاة ، أو تحريم الربا ، أو الخمر ، أو الميسر ، أو الزنا ، أو إقامة الحدود ، أو إيجاب الاحتشام على المرأة ، وتحريم التبرج ، بله النهى عن بيع الغرر ، أو صنع التماثيل ، وما دون ذلك؟!

إن الذى لا يؤمن بأن محمدًا رسول من الله ، لا ينطق عن الهوى ، وأن القرآن كلام الله ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، لا يجوز الجدال معه فى تطبيق الشريعة ؛ لأنه لا يؤمن بالشريعة ، ولا بصاحب الشريعة ، ولا بكتاب الشريعة .

إنما يكون الجدال معه أولاً ، فى إثبات نبوة محمد ، وإلهية القرآن ، كما نفعل مع اليهود والنصارى .

فإذا أثبتنا هاتين القضيتين ، كان الحوار حول الشريعة وتطبيقها ؛ إذ لا يتصور قيام بناء بغير أساس .

---

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

وأما الذى لا يؤمن بالألوهية نفسها ، ولا يثبت « الغيبيات » أصلاً ويتبنى ما قاله «فوير باخ » بكل تبجيح وغرور : « ليس صحيحًا أن الله خلق الإنسان ، بل الصحيح أن الإنسان هو الذى خلق الله » !!! أى أن القول بالألوهية وهم اخترعه الإنسان ؛ أما هذا ، فمن العبث بالعقول ، ومن إضاعة الأوقات والجهود : الحديث معه حول الشريعة وأحكامها ، والحدود وتطبيقها ، والدخول فى متاهات التفصيلات ، التى لا تتناهى ، وهو يجحد أصل الدين جملة !!

ولهذا لما بعث النبى ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن ، قاضيًا ومعلمًا ، كان من وصيته له :

« إنك تأتى قومًا أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله . فإن هم أجابوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم فى أموالهم صدقة ، تؤخذ من أغنيائهم ، لترد على فقرائهم . . . » الحديث .

وهكذا علمه أن يبدأ الدعوة إلى العقيدة ، قبل أن يدعو إلى تكاليف الشريعة .

من أجل هذا ، أقول لإخواننا ، الذين نصبوا أنفسهم محامين عن « العلمانية » ، ومعادين للشريعة وللحل الإسلامى : حددوا مواقعكم ، لنعرف أين تقفون من القضايا الكبرى : الله ، والوحى ، والآخرة . وبالتالى : من صحة نبوة محمد ، وصدق ما جاء به من عند الله ، وأن القرآن كتاب الله ؟ وبعبارة واحدة : هل أنتم مسلمون ، فنخاطبكم بما يخاطب به المسلم أخاه ؟

أم ترون الدين والإيمان به مرحلة انتهت ، كما قال « أوجست كونت » يوما ، وأننا فى عصر العلم لا عصر الدين ! وأننا فى عصر الذرة وغزو الفضاء ، لا يجوز أن تحكمنا شريعة ، جاءت فى عصر الجمل « سفينة الصحراء » ! وأن أبناء القرن العشرين والحادى والعشرين ، لا يجوز أن تحكمهم قيم ومفاهيم وشرائع ، عمرها أربعة عشر قرنًا ؟!!

حددوا لنا موقعكم بصراحة أيها الإخوة المحاورون ، وقولوا لنا : من أنتم وما

أنتم ؟ حتى يكون حوارنا على بصيرة ، ولا نتناقش فى الجزئيات ، ونحن لم نتفق على الكليات ، أو نجادل فى « الحواشى » ، ونحن مختلفون فى « المتن » ، أو نثير معارك حول فروع الفروع ، ونحن لم نُقم أصل الأصول .

أما نحن ، فموقعنا - بحمد الله - محدد من جهاته الأربع ، وهويتنا واضحة بينة كالشمس فى رابعة النهار ، لا نتنكر لها ، ولا نلبس أقنعة تخفى حقيقتها ، ولا نخفض أصواتنا بالإعلان عنها ، بل نعلنها صريحة مدوية : إننا « مسلمون » ، رضينا بالله تعالى ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد رسولاً ، وبالقرآن منهاجًا ، ولسنا مستعدين أن نتنازل عن ديننا لأى سبب ، ولا بأى بدل ، ولا لأى أحد ، بعد أن ارتضيناه لأنفسنا وارتضاه الله لنا ، وأتم به النعمة علينا ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١) .

وكوننا مسلمين ، يحدد موقعنا العقائدى ، وهويتنا الحضارية والأيديولوجية، ولكنه لا يلغى موقعنا الجغرافى ، ولا موقعنا التاريخى .

موقعنا الجغرافى : أننا عرب ، نعيش فى وطن تجمع أهله لغة واحدة ، وتاريخ واحد ، ولهم آمال وآلام مشتركة ، وأننا مصريون ، نعيش فى بلد واحد ، له تاريخ ، وبين أهله صلات توجب حقوقًا والتزامات ، تقتضيها المواطنة والجوار ، ولنا مشكلات تخصنا ، يجب أن نتعاون على حلها .

ولا تنافى بين الانتماء إلى الإسلام ، والانتماء إلى شعب خاص ، أو وطن خاص ؛ لأنه لا تنافى بين العموم والخصوص ، كما سنوضح ذلك بعد .

وموقعنا التاريخى : أننا نعيش فى أوائل القرن الخامس عشر الهجرى ، وأواخر القرن العشرين الميلادى ، فى عصر حطم الذرة ووصل إلى القمر ، ويرنو إلى كواكب أخرى أبعد من القمر ، وصنع بعقله عقلاً ، يصنع العجائب هو «الكومبيوتر » .

كما لا ننسى أننا لسنا وحدنا فوق هذه الكرة ، بل نعيش فى عالم تتعدد فيه

---

(١) المائدة : ٣ .

الديانات والمذاهب ، والفلسفات ، تعدد الأجناس والألوان واللغات ، ونحن - وإن كنا نحو خمس العالم عددًا « ألف مليون أو نزيد » - لسنا الأقوى عدة ، ولا الأكثر علمًا ، بل لا زلنا عالة على غيرنا ، وكلنا - نحن المسلمين - فى دائرة ما سموه «العالم الثالث » ، أو « البلاد النامية » ، والنمو تعبير مؤدب للتخلف ، الذى نرزح تحت نيره .

وما دمنا مسلمين ، فلا يسعنا إلا التسليم لحكم الإسلام فى شئون حياتنا ؛ فحقيقة الإسلام : أن تسلم قيادك لله ، ولا تجعل لك مع أمره أمرًا . فإذا أخبر الله قلت : آمنا ، وصدقنا . وإذا أمر الله قلت : سمعنا ، وأطعنا . وإذا نهى الله قلت : انتهينا ، وحرمنا . ولا يتحقق إيمان بغير هذا ، ولا خيار لمؤمن أمام أمر الله وحكمه ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١) .

هذه قضية مسلَّمة ، لمن ارتضى الإسلام دينًا ، وعرف ما هو الإسلام ، ومعنى الربوبية والعبودية ، ومعنى الخالقية والمخلوقية ، وأن من حق الرب ، الخالق المنعم ، أن يأمر وينهى ، ومن واجب عباده المخلوقين له ، المغمورين بنعمه ، أن يسمعوا ويطيعوا .

وتسليمنا للنص الإلهى ، ليس تسليمًا اعتباطيًا ولا جزافيًا ، ولا شيئًا خارجًا عن نطاق العقل . بل هو ما اقتضته الفطرة ، وفرضه العقل ذاته ؛ فالعقل هو الذى هدانا إلى الله سبحانه ، استدلالاً بالصنعة على الصانع ، وبالنظام البديع ، فى هذا الكون ، على منظمه ومبدعه .

وهو نفسه الذى دلنا على أن محمدًا صادق ، فيما بلغه عن ربه ، وأن القرآن ليس من صنعه وتأليفه ، بل هو كلام الله ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (٢) .

وبعد أن أثبت العقل المستقل أعظم حقيقتين فى الوجود ، وهما : وجود الله

---

(١) الأحزاب : ٣٦ .

(٢) هود : ١ .

الواحد ، وصدق رسالة محمد ﷺ ، عزل العقل نفسه - على حد تعبير الإمام الغزالى - ليتلقى عن الوحى ، ما يعجز عن الوصول بأدواته إليه من شئون الغيب ، ومما تضطرب فيه العقول ، وتحتاج معه إلى مصباح ، يضىء الطريق ، ودليل يهدى السبيل .

وليس معنى هذا ، أن العقل لم يعد له عمل ولا دور مع وجود النص ، فالواقع أن العقل هو المخاطب بالنص ، وهو الذى يفهمه ويفسره ، وبخاصة أن الأكثرية العظمى من النصوص ، تحتمل أكثر من فهم ، وأكثر من تفسير ، حكمة من الله ، الذى جعل من النصوص ما هو قطعى الدلالة ، وما هو متشابه محتمل ، لتجتهد العقول ، وتبحث عن الحق والصواب ، ويرجح هذا رأيًا ، وذاك آخر ، وثالث غيره ، وكلهم مأجورون ، ما داموا أهلاً للاجتهاد ، وهدفهم الوصول إلى الحق ، بحسب طاقتهم البشرية .

وللعقل دور أكبر ، فيما لا نص فيه ، وهو كثير وكثير ، فلم تشأ إرادة الله الحكيم البر الرحيم ، أن يقيد عباده بالنصوص فى كل شىء ، بل ترك لهم مساحات رحبة ، يعملون فيها عقولهم ، وفق مصالحهم المادية والمعنوية ، الفردية والجماعية ، الدنيوية والأخروية ، مهتدين بالنصوص المعصومة ، وما وضعته من قواعد ، وما سنته من أحكام ، وما أقامته من موازين .

هذه هى القضية الأولى بيننا وبين خصوم « الحل الإسلامى » من دعاة «العلمانية » ، والمعارضين لتطبيق الشريعة الإسلامية ، قضية تحديد الهوية ، تحديد الموقع : هل هم مسلمون أم لا ؟ هل هم مع الإسلام أم ضده ؟ هل هم مع الشريعة أم عليها ؟

أكبر الظن أنهم سيقولون : نحن مسلمون ، عريقون فى الإسلام ، أبا عن جد !

ولا يتوقع من أناس فى حنكتهم السياسية [1] ، أن يخسروا الجماهير العريضة من

---

(١) أثنى د . فؤاد زكريا فى مقالة بمجلة « المصور » على المرأة ، التى تكلمت ، فشتمت الإسلام - لا المسلمين - واتهمته بأنه ظلم المرأة ! وظلم الأقليات ! ووصفها الدكتور بالشجاعة ، وإن كان ينقصها - فى رأيه - النضج السياسى . يريد أنها لم تستعمل اللباقة والدهاء فى خداع الجماهير ، عما فى نفسها كالآخرين الناضجين !!

الشعب - وخصوصًا فى بلد كمصر - ويعلنوا أنهم لا يؤمنون بدين ، وأن عهد الدين قد ولى .

إنما الذى يتوقع منهم ، أن يقولوا : نحن مسلمون مثلكم ، ولكننا نختلف معكم فيما هو الإسلام . فإسلامنا إسلام تجديدى ، وإسلامكم إسلام تقليدى . . إسلامنا إسلام عصرى ، وإسلامكم إسلام قديم . . إسلامنا متطور متحرك ، وإسلامكم ثابت جامد .

وقد نرد عليهم ، بأن ما ندعو إليه هو الإسلام الصحيح ، وما تزعمونه إنما هو أفكار مستوردة ، تلبس لبوس الإسلام . . وأننا ننطلق من الإسلام ، عقيدة ومنهاجًا ، وأنتم تنطلقون من مسلَّمات أُخر . . نحن نرى الإسلام روح وجودنا ، وجوهر حياتنا ، وأنتم تسمون ذلك « المسألة الدينية » !!

● ما الحكم عند الاختلاف بيننا وبينهم ؟

وهنا نصل إلى مفترق طريق بيننا وبين دعاة العلمانية ، الذين يزعمون أن من حقهم أن يفسروا الإسلام من منظورهم الخاص ، وأن يقدموا فيه ويؤخروا ، كما يحلو لهم .

وهنا نرد عليهم دعواهم بحجج ثلاث :

أولاً : ليس الإسلام دعوة غامضة ، ولا مادة هلامية ، يفسرها كل من شاء ، بما شاء ؛ فالإسلام له أصوله البينة الثابتة ، ومصادره الواضحة المحكمة ، وليس هو كالأديان الأخرى ، التى يملك رجالها أو المجامع المقدسة لديها ، أن تضيف إليه ، أو تحذف منه ، أو تعدل فيه . فهو هو منذ قال الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١) . وقال رسوله ﷺ : « تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك » .

فما أجمله القرآن من أمور الإسلام ، بينته السنة النبوية ، وهى قول النبى وفعله وتقريره ، وأكدته سنة الراشدين المهديين ، الذين اعتبرت مواقفهم فى فهم الإسلام

---

(١) المائدة : ٣ .

وتطبيقه من السنن الواجب اتباعها ؛ لأنهم أقرب الناس إلى مدرسة النبوة وأحرصهم على تطبيق الإسلام ، وأقدرهم على فهمه ، لما أُتيح لهم من مشاهدة أسباب تنزيل القرآن وقول الأحاديث ، ولما لهم من نور البصيرة ، وسلامة الفطرة ، والتمكن من اللغة بالسليقة .

ثانيًا : عندما يختلف العلماء والباحثون فى أمر من الأمور : أهو من الإسلام أم لا ، سواء كان من العقائد أم من العبادات أم من الأخلاق أم من المعاملات ، ألا يوجد معيار يحتكم إليه !!

بلى ، قد وضع القرآن الكريم لنا المعيار ، الذى نرجع إليه عند الاختلاف والتنازع ، وهو ما ذكره بقوله : ﴿ يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ منكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (١) .

وقد أجمع المسلمون فى جميع العصور ، على أن الرد إلى الله تعالى ، يعنى الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول - بعد وفاته - يعنى الرد إلى سنته . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « تركت فيكم ما إن اعتصمتم به ، لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسنة نبيه » .

فما كان محكمًا بينًا فى كتاب الله ، والصحيح الثابت من سنة رسول الله ، فهو القول الفصل ، والحكم العدل .

وما لم يوجد فيه نص بين محكم ، إما لعدم نص أصلاً ، أو لوجود نص ظنى الدلالة أو الثبوت ، أو هما معًا ، فهنا يلزم الرجوع إلى القوانين ، التى وضعها علماؤنا المحققون ، وأئمتنا الراسخون ، لضبط الاستدلال ، ولا سيما عند تعارض الأدلة فى الظاهر ، وقد وضعوا لذلك علم أصول الفقه ، وعلم أصول الحديث ، فضلاً عما أصّلوه من قواعد فى علوم أخرى ؛ مثل : علوم القرآن ، وأصول التفسير ، وقواعد الفقه ، وغيرها .

---

(١) النساء : ٥٩ .

ثالثًا : إذا اختلف علماء الإسلام المتخصصون فى دراسته وفقهه ، والذين عاشوا حياتهم له ، يتعلمونه ويعلمونه ، ويدرسون معه كل ما يعين على حسن فهمه من « العلوم الآلية » التى هى آلة الفهم ، ووسيلة الاستنباط ، وهى علوم اللغة ، والنحو ، والصرف ، والمعانى ، والبيان . إذا اختلف هؤلاء مع دعاة العلمانية - الذين لم يعرفوا من الإسلام إلا قشورًا ، ربما أخذوها عن « المستشرقين » ، الذين يحسنون بهم الظن ، أو « المستغربين » ، الذين تتلمذوا عليهم ، ولعلهم لم يقرأوا كتابًا معتبرًا فى أصول الفقه ، أو فى مصطلح الحديث ، بله الفقه أو الحديث نفسه - فمن يكون أحق بالصواب من الفريقين : الإسلاميون أم العلمانيون ؟ ومع من يسير المسلم ، وهو مطمئن القلب ؟

إن الله أمرنا أن نرجع فى كل أمر إلى أهله ، أى إلى أهل الاختصاص به والخبرة فيه ، وفى هذا يقول تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِى الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (٤) .

فهل يدعى العلمانيون أنهم أهل الذكر ، وأهل العلم والخبرة بالإسلام ، وأهل الفتوى ، فيما يختلف فيه من أحكامه ؟! لا أحسبهم يجرؤون على ذلك ، برغم ما لهم من اجتراءات !

ولو توافر العلم عند الطرفين المختلفين ، وكانت كفتا الميزان عندهما سواء ، لوجب الترجيح بالورع والتقوى . فالعالم ، الذى يخشى الله ، ويستحضر رقابته ، وأنه مسئول أمامه عن علمه ، ماذا عمل فيه ؟ ولا يبيع دينه بدنياه ، فضلاً عن أن يبيعها بدنيا غيره ، هذا - ولا ريب - أولى أن تكون كفته هى الراجحة ، وحجته

---

(١) النحل : ٤٣ .
(٢) الفرقان : ٥٩ .
(٣) فاطر : ١٤ .
(٤) النساء : ٨٣ .

هى اللائحة ، وقوله هو الأدنى إلى السداد ؛ أولاً : لأنه مأمون على دين الله ، لا يخاف منه التزييف اتباعًا للهوى ، أو التحريف طلبًا لدنيا . وثانيًا : لأن مثله جدير أن يوفق للصواب ، وأن يسدد للحق ، فالتقوى هدى ونور وبصيرة ، وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ أى نورًا تفرقون به بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال .

فما يكون الموقف ، إذا جاءنا العلمانيون بآراء اخترعتها أهواؤهم ، أو نقلوها عن أساتذتهم الغربيين ، وهى آراء لم يقم عليها برهان ، ولا أنزل الله بها من سلطان ، وهى آراء لا يخالفهم فيها علماء العصر وحدهم ، بل هى آراء مخالفة لما أجمع عليه علماء الأمة فى القديم والحديث ، هل يكون لآرائهم هذه اعتبار فى ميزان الإسلام ، ومنطق الإسلام ؟!

يقولون : هذا « عندنا » غير جائز فمن أنتمو ، حتى يكون لكم « عندُ » ؟!

* * *

(١) الأنفال : ٢٩ .